تمظهرات خطاب المقاومة في نماذج من الأدب المغربي

زهير اتباتو

أستاذ بالسلك الثانوي، وطالب باحث بسلك الدكتوراه (المغرب).

جامعة سيدي محمد بن عبد الله – كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس– سايس.

مختبر: الدراسات الأدبية واللسانية وعلوم الإعلام والتواصل.

ملخص البحث:

لا يختلف عاقلان على أن الأدب بمختلف أجناسه قد شكل عبر التاريخ إرثا حقيقيا، دونت عبره الحضارات موروثاتها الثقافية والاجتماعية والفنية..، وقد ساهم بشكل مباشر في تطوير المجتمع والرقي به، حتى على المستوى السياسي، في سياق مقاومة المستعمر، وعليه تأتي هذه الدراسة للكشف عن منطق الأدب في مجابهة الاستعمار وخصوصا بالمغرب، وما قدمه من مساهمات عدة في ردع المد الأوروبي، وإعادة موازين القوة بين الشمال والجنوب، ومحاولة العدل في معادلة القوي والضعيف، من خلال تسخير سلطة القلم وسلطان الإبداع قلبا وقالبا في آن واحد نهو هدف سام وشريف وهو تحقيق الحرية والتحرر من قيود العبودية والتبعية.

الكلمات المفاتيح: –أدب المقاومة –الكتابة المضادة –الأجناس الأدبية –ممارسة السلطة الأدبية.

Manifestations of Resistance Discourse in Selected Works of Moroccan Literature

Zouhair Tbatou

Secondary School Teacher and Ph.D. Researcher, Morocco

Sidi Mohamed Ben Abdellah University – Faculty of Letters and Human

Abstract :

It is widely acknowledged that literature, in its various genres, has historically constituted a profound legacy through which civilizations have documented their cultural, social, and artistic heritage. Literature has played a direct role in social development and advancement, extending its influence to the political sphere within the context of anti-colonial resistance. Accordingly, this study aims to examine the logic of literature in confronting colonialism, with a specific focus on Morocco. It explores the multifaceted contributions of literary works in deterring European expansion and recalibrating the power dynamics between the North and the South. Furthermore, the study analyzes how the 'power of the pen' and creative authority were harnessed—in both form and substance—toward the noble objective of achieving sovereignty and liberation from the shackles of servitude and dependency.

Keywords: Resistance Literature - Counter-Writing - Literary Genres - Exercise of Literary Authority.

مقدمة:

تعد قضية المقاومة في المغرب واحدة من أبرز المحطات التاريخية التي جسدت التحام الروح بالتراب، وصمود الكلمة أمام رصاص المستعمر. فالمغرب، بموقعه الجغرافي الاستراتيجي الدقيق والمهم، ظل عبر العصور مطمعاً

للحاقدين الذين كشروا عن أنيابهم لنهب خيراته واستغلال إنسانه. وإذا كان التاريخ قد سجل بمداد الفخر بطولات المقاومة المسلحة، فإن هناك سلطة أخرى لا تقل فتكاً وتأثيراً، وهي "سلطة القلم" التي واجهت "سلطة السلاح".

إن الأدب المغربي بمختلف أجناسه لم يكن مجرد ترف فكري أو تزجية للوقت، بل شكل عبر التاريخ إرثاً حقيقياً دونت فيه الحضارة المغربية موروثاتها الثقافية والاجتماعية، وساهم بشكل مباشر في تطوير المجتمع والرقي به، وصولاً إلى استخدامه كأداة سياسية فاعلة في سياق مقاومة المستعمر، حيث أدرك المثقف المغربي أن المقاومة لا تنحصر في حمل السلاح وشحن الذخيرة فحسب، بل يمكن "شحن القلم برصاص المداد" لتصل أصداء القضية الوطنية إلى العالمية. ومن هنا، انبرى المبدعون المغاربة لتسخير الأجناس الأدبية كافة لخدمة هدف سامٍ وهو التحرر من قيود التبعية والعبودية. وقد جاء هذا الوعي الأدبي رداً على محاولات الاستعمار إقبار الهوية المغربية ثقافياً ولغوياً وحضارياً لتكريس التبعية. فكان الأدب هو الحصن المنيع الذي احتمت به الهوية، والميدان الفسيح الذي أخرج فيه الأديب دفقاته الشعورية التي تحرق القلب وتدمي الفؤاد جراء ما حل بالوطن.

وتأسيسا على ما سبق، تأتي هذه الدراسة للكشف عن "منطق الأدب" في مجابهة الاستعمار بالمغرب، وكيف استطاع المبدع المغربي إعادة موازين القوة بين الشمال والجنوب عبر "سلطان الإبداع"، إنهم "جنود الأدب" الذين ركبوا سفينة الأمل ووجهوا مدافع أقلامهم بمداد حب الوطن، ليؤكدوا للحاضر والمستقبل أن الأدب كان، وسيبقى، ثورة لا تهدأ في وجه الاستعمار، وشعاراً يرفرف بالحرية والاستقلال. مسلطين الضوء على تلك التمظهرات الإبداعية التي جعلت من الكلمة حصناً والقصيدة رصاصة، والقصة والمسرحية والرواية وثائق حية تشهد على عظمة شعب رفض التبعية والخنوع.

بين سلطة السلاح وسلطة القلم:

لا يخفى على ذي النظر الحصيف أن المغرب يعد تاريخيا من أبرز البلدان التي أسست لمكانتها على الصعيد العالمي قلبا وقالبا، امتاز هذا الوطن جغرافيا بموقع استراتيجي دقيق ومهم في الساحة العالمية، لطالما قنص عليه الحاقدون وكشروا عن أنيابهم ورفعوا أسلحتهم وأعدوا ذخيرتهم ولمعوا سلاحهم لاحتلاله ونهب خيراته واستغلال رجاله وتجويع شعبه وقتل أطفاله وسلب نسائه.

إن الوطن/المغرب قد شهد تحولات على طول السنين وواجه احتلالات من كل الأطراف والجهات، لم يرضخ رجاله أبدا للواقع المر والاستعمار الخسيس، فمرورا بالمرينيين والسعديين والمرابطين والموحدين...وعلى وزنه أقوام أخرى دخل المستعمر في القرن الماضي للمغرب نظرا لأوضاع كان الجسد المغربي فيها منهكا، لم يستطع رد العدو فوقع في فخ الاستعمار، لكن هذا لا يعني أن كل أسير يعشق أسره ولا كل من استعبد أحب رقه، ولهذا قد وجد المستعمر في كل مراحل استعماره المغاربة رجالا وشيوخا وأطفالا جنودا مجندة لرد طغيانه وكبح شهواته وحصر رغباته، بالدفاع عن حوزة هذا الوطن بكل ما ملكوا من قوة بأرواحهم وأجسادهم، بما لهم بأطفالهم وبكل ما ملكوا إليه سبيلا. إنهم المغاربة رجال الدفاع عن الكرامة بامتياز...استحقوا وباعتراف الجميع عربا وغربا بأن تقلد أكتافهم بوسام الشجاعة ونيشان حب الوطن، بما قدموه من تضحيات جسام تُعْجز الناظر وتسلب فؤاد القارئ في كتب التاريخ عنها.

فالمغاربة لم تنحصر مقاومتهم في حملهم للسلاح وشحنهم للذخيرة وقتل العدو جسديا، بل سخرت وسائل أخرى كانت في بعض الأحيان أنجع من السلاح، أو بعبارة أخرى عن طريق شحن القلم برصاص المداد على ورقة تكتب أحرفها مرصعة بالذهب وصل صداها العالمية، وسمع الكون ما حل بشعب المغرب وتعاطفوا وأبدوا كل الاحترام لهذا الوطن...وعليه، عرف المستعمر وقاحة ما فعل، ووعى المغاربة بضرورة الكفاح للتخلص من هذا الاستعمار.

إن الأدب كميدان فسيح يتيح للأديب الإبداع والتعبير وإخراج ما في الصدر من دفقات شعورية تحرق القلب وتدمي الفؤاد..، فسخر المبدعون المغاربة جل الأجناس الأدبية في سبيل مجابهة الاستعمار وطرده من الأراضي المغربية، فكانت القصة والرواية والمسرح وغيرها من الأجناس الأدبية مرتعا خصبا اتخذه الأدباء ليعملوا في رحابه.

فن القصة والدفاع عن حوزة الوطن:

ولكي نكون أكثر تفصيلا ودقة في تحليلنا سنتطرق لكل جنس على حدة وباختصار، وأول هذه الأجناس نجد الفن القصصي وإن كان ظهوره في المغرب متأخرا شيئا ما مقارنة بنظيره في المشرق العربي باعتبار أن المشارقة قد اطلعوا أكثر على ما وصل إليه الغرب من إبداع في هذا الفن فاستطاعوا أن يبدعوا فيه، ولكن الفن القصصي لم ينبثق من عبث في الوطن المغربي بل لأسباب وعوامل محددة وسر التأخر يتمثل في "مجموعة من الأسباب منها : عدم الاستفادة من النهضتين العربية والمشرقية، والاستعمار الذي سعى بكل جهوده لأجل إقبار الهوية المغربية ثقافيا ولغويا وحضاريا بغية تكريس التبعية المغربية... وهكذا لم يتم الانتباه لأهمية الأدب إلا بعد ظهور الحركة الوطنية وتبلور الوعي الوطني إذ انتبهت الحركة الوطنية إلى خطورة المخطط الاستعماري وإلى أهمية الأدب والانخراط في معركة المقاومة...، ومن هذا المنطلق ظهرت الإرهاصات الأولى للفن القصصي بالمغرب عن طريق التقليد وهي المرحلة التي يمكن وصفها:

(المرحلة الجنينية للقصة المغربية) 1930/1905م، إذ طغى عليها الطابع التوجيهي التربوي وعدم احترام تقنية وشروط الكتابة القصصية، ولم تعرف القصة المغربية تطورا مهما إلا في المرحلة الممتدة ما بين 1955/1920م، إذ ارتبط هذا الفن بكل ما هو واقعي معيشي، وبانعكاسات الاحتلال الأجنبي على المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية"[1].

مما سبق يمكننا أن نقول أن القصة وظهورها في ساحة الإبداع المغربي لم تولد لأساس فني في المرحلة الجنينية بالأساس، بل كانت لهدف موضوعي ألا وهو محاولة تجسيد الواقع المغربي المزري والاستعمار الطاغي الذي استغل خيراته بكل المناطق الجغرافية المغربية على جميع المستويات. ونمثل هنا بالمجموعة القصصية الذائعة الصيت لعبد المجيد بن جلون*، المسماة بوادي الدماء، وعلي بوشناق لعبد الرحمان الفاسي التي اعتمدت بالأساس التأريخ في قالب قصصي فني لأمجاد وبطولة الشعب المغربي ضد الاحتلال، ولم ننسى أفراح ودموع لمحمد لخضر الريسوني*، وقصته صور من حياته الاجتماعية بالإضافة إلى اللهاث الخارج لمحمد الصباغ[2]*، وقصص من المغرب لمحمد عبد السلام البقالي*، وغيرها من القصص.

إن الفن القصصي وإن كان في مرحلة الاستعمار بدائي النظم لا يحترم قواعد القصة المتعارف عليها حاليا وإن كانت إنتاجاته قليلة إلا أنه ساهم بشكل كبير بتوعية المغاربة إلى ضرورة نيل الحرية والتحرر من سلاسل الرق التي تطوق عنق شعب بأسره، وإن كان هذا الكفاح المشار إليه سابقا ذا تأثير في شحد همم هذا الشعب فهو لم ينفرد وحده

---

[1]– القصة الواقعية بالمغرب الرواد والمؤسسون: الجريدة الالكترونية المغربية هسبريس، هشام حراك يونيو 2012.

*– عبد المجيد بن جلون: كاتب وأديب مغربي من مواليد 1919 بالدار البيضاء حاصل على جائزة المغرب للأدب والفنون ثلاث مرات، من أعماله: وادي الدماء سلطان مراكش. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

*– محمد لخضر الريسوني: ولد في 15 يوليوز 1929 بمدينة تطوان حاصل على العالمية من جامعة القرويين سنة 1953، يشتغل كاتبا إذاعيا انضم إلى اتحاد كتاب المغرب سنة ، 1961 له كتب : أفراح ودموع 1951، صور من حياته الاجتماعية 1953، ربيع الحياة 1957، وسيرة ذاتية بعنوان رحلة نحو النور 1984.(نقلا عن اتحاد كتاب المغرب).

[2]*– محمد الصباغ: ولد سنة 1930 بتطوان توفي 9 أبريل 2013 بالرباط، شاعر مغربي وعضو مؤسس لاتحاد كتاب المغرب، يعد من ألمع رجالات النهضة المغربية، بالمغرب العربي، من مؤلفاته العبير الملتهم 1953، أنا والقمر 1956. نقطة نظام 1970 .(نقلا عن اتحاد كتاب المغرب).

*– محمد عبد السلام البقالي: ولد بمدينة أصيلا شمال المغرب عام 1932 وتوفي يوم 30 يوليوز 2010 ، شاعر و أديب مغربي من أشهر كتاب الأطفال كما يعتبر من رواد الخيال العلمي والقصة البوليسية من أعماله المسرحية: مولاي إدريس الرقاص والأسود. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

بهذه الخاصية بل هناك من الأجناس الأخرى ما جند هو الآخر لمقاومة الاستعمار، ولكن هذه المرة ليس فقط على ورق بل جسدت كلمات القلم على ركح ترجمانه الحركة والغناء والرقص وتارة بالحوار وتارة أخرى بالجدال بل ويصل الأمر إلى الغناء ومن حركة إيحائية وصل المغزى للمتلقي بأسلوب فني أدبي راقي.

أب الفنون في مواجهة الاستعمار:

فالتجربة المسرحية هي الأخرى لم تنطلق عبثا بالوطن المغربي ولم تولد من عبث بل هي الأخرى تجربة قد نهضت كطائر فينيق من رماد التراث المغربي الذي هو الآخر يزخر بهذه التمظهرات الفنية والمتمثلة في كل من فن الحلقة والبساط وسلطان الطلبة وسيدي الكتفي وغيرها من التمظهرات الشعبية، إلا أنه لم يرتقي لكي يكون فنا مسرحيا بمقوماته المتعارف عليها.

فبعدما استعمر المغرب من طرف المستعمرين جلبوا معهم ثقافة المسرح وممثليه ليرفهوا عن أنفسهم، لكن المغاربة المفكرين ذوي العقول الحصيفة الذين يفهمون الكلام من نغماته ويدرون المعنى من لمحاته ويلتقطون الرسالة أسرع من البرق تسارعوا إلى تجنيد المسرح كفن غربي وألبسوه بذلة المقاومة وزودوه بذخيرة مكافحة الاستعمار فانقلب السحر على الساحر فأصبح الفن المسرحي سلاحا يوجه إلى أنوف الغرب بعدما كان بالأمس وسيلتهم للترفيه.

انطلقت التجربة المسرحية بالمغرب بعد وعي المثقفين المغاربة والمفكرون بضرورة إعادة هيكلة المسرح ومواضعه في سبيل خدمة القضية الوطنية ألا وهي التحرر من قيود الاستعمار " فإن المسرحيين الرواد أمثال محمد القري والمهدي المنيعي وعبد الواحد الشاوي ومحمد بن الشيخ ومحمد الزغاري وغيرهم قد تأثروا بالفرق القديمة من المشرق العربي حيث حفزتهم على التشبع بالفن الدرامي والتمرس على أسلوبه الإيطالي، الخوض في عوالمه تأليفا وترجمة وإعدادا فنيا وهكذا، وانطلاقا من سنة 1923 أخذت الفرق تتأسس في المدن الكبرى كفاس ومراكش والدار البيضاء ومكناس وطنجة وتطوان، كما عمت المغرب حركة مسرحية نشيطة تجسدت في أعمال مسرحية عديدة نذكر صلاح الدين الأيوبي (نجيب حداد) * أدب العلم ونتائجه– اليتيم المهلهل– أوصياء (محمد القري) العباسية أخت الرشيد – طرتوف(المهدي المنيعي) المنصور الذهبي (محمد بن الشيخ)– يتيم الصحراء– في سبيل المجد عبد الواحد الشاوي إلخ..."[3].

ومن هنا يمكن أن نقول : أنه " قد انطلقت التجربة المسرحية الأولى بالمغرب على يد تلاميذ القرويين وثانوية مولاي إدريس بفاس الذين كانوا يعبئون من طرف فرق أجنبية لتأدية بعض الأدوار، فاستطاعوا بفضل ثقافتهم المزدوجة واستيعابهم للفنيات التي استكشفوها من الفرق الزائرة أن يؤلفوا فرقة باسم الجوق الفاسي برئاسة عبد الواحد الشاوي،أصبحت فيما بعد فرقة الاتحاد المسرحي، ومن هذا التاريخ أخذت تلمع بعض الأسماء كمحمد القري* والمهدي المنيعي ومحمد بن الشيخ وعبد الواحد الشاوي وغيرهم وكان الناس يتحدثون عن أعمال هذه النخبة وتضحياتها بكثير من الإعجاب"[4].

---

[3]– حسن المنيعي: أوضاع المسرح المغربي المملكة المغربية وزارة الثقافة.

*– نجيب حداد، صحفي وأديب وشاعر وقاضي ومترجم من أعماله: تذكار الصبي ومنتجات نجيب حداد والرجاء بعد اليأس وصدق الحداد وروميو وجولييت. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

*– محمد القري: هو محمد بن أحمد القري ولد في مدينة تاونات وتوفي في سجن كلميمة غرب مدينة الراشدية له أعمال منها: في الطوائف الظالة والعقائد الفاسدة وقصائده نشرت في كتاب الوافي في الأدب العربي المغرب الأقصى وله مجموعة مسرحيات منها: أدب العلم ونتاجه، أوصياء المكر والخداع، مجنون ليلى. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

[4]– نشأة المسرح المغربي: دعوة الحق العدد 181 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (نقلا عن نشأة المسرح المغربي للدكتور عثمان بن خضراء مجلة الفنون العدد 7–8، وأبحاث الدكتور المنيعي، وعن فهرس للمسرح المغربي الدكتور زين العابدين الكيناني، العدد 7–8، وعن الفن القصصي والمسرحي في المغرب العربي محمد الصادق العفيق، مجلة الفنون ص 170–173.

ولقد كانت هذه "الأعمال الدرامية تعبر عن قناعة أصحابها الفكرية وعن تضحياتهم من أجلها كما حصل للأستاذ محمد القري الذي مات شهيدا في منفاه القسري بالصحراء، وهذا يعني أن المسرح المغربي كان يرتكز في عهد الحماية على كتابة ملتزمة تهدف إلى توعية الجمهور بقضاياه كما تهدف إلى التعبير عن مواقف وطنية محمومة تفضح ممارسات الاستعمار وسياسته القمعية، ومن هنا مشاركة الزعيم الوطني في خضم الفعل المسرحي، (مثلا عبد الخالق الطريس' انتصار الحق على الباطل') وكذا الفقيه والتاجر ، إضافة إلى المثقفين الذين اهتموا بقضايا المسرح إما بالحديث عن غايته وأهدافه النبيلة أو بمواكبة العروض إما على مستوى التغطية الصحفية وعلى مستوى التنويه بالكتابة النقدية"[5].

كما قدمت مجموعة من الأعمال التي عملت بدورها إلى تمثيل الأوضاع التي كان يعيشها المغرب آنذاك فمثلا" قدم الجوق الفاسي عددا مهما من الروايات التمثيلية ما بين مسرحية ومقتبسة ومؤلفة لمشارقة ومغاربة، وكانت هذه الفرقة تضم باقة من الشباب منهم من كان يقوم بدور المؤلف ومنهم من كان يقوم بدور الممثل ومنهم من كان يقوم بدور المخرج وكان منهم أحيانا من يجمع بين الأدوار كلها، كعبد الواحد الشاوي، ومنهم من اشتهر بالغناء والقيام بأدوار أثناء انعدام العنصر النسوي آنذاك كالحاج محمد بوعياد، ومنهم من اشتهر بالأدوار الهزلية كأحمد الحريش، وهناك من غلب عليه دور التأليف كالمهدي المنيعي و بوطالب وابن الشيخ ومحمد الزعري، لقد كانت هذه الفرقة تسعى لبلورة مشاكل البلاد وإبراز الصراعات الاجتماعية كما كانت موضوعات التأليف بدورها تستمد مضامينها عندهم من تاريخ الإسلام، والأحداث السياسية المعاشة، وذلك لحث المغاربة على طرد المستعمر وفضح أساليبه واطلاع المواطنين على تاريخهم المجيد، وطرد أصحابها –كما حدث للقري–، الذي تحمل أنواع التعذيب والنفي الغامضة حتى عرف بدفين الصحراء، لقد كان هذا الشهير مرشد الفرقة يثقفه بروايته المقتبسة ويصنع لها الحوار والأناشيد المناسبة، ويعد أول من تعاطى التأليف المسرحي... إذ كان يكتب مسرحية ويوقعها باسم عبد الواحد الشاوي كما كان يذكر بعض معاصريه وذلك حتى يفلت من عقاب السلطة"[6].

وعليه فإذا كانت هذه الحركة قد ركزت على النص المسرحي ومضمونه الفكري من حيث الدفاع عن حوزة الوطن وطرد المستعمر مع مراعاة الجانب الفني حسب التصورات الأولية والمتواضعة عن الإخراج المسرحي" فإن هذا التركيز على النص يعد كرد فعل بعد إعلان الظهير البربري سنة 1930 وسياسته الرامية إلى تمزيق الأمة المغربية. لهذا عرف مسرح الحماية فيضا زاخرا من الكتابات اهتمت بصيانة اللغة العربية وحمايتها من الضياع، كما اهتمت بالتعامل مع التاريخ كمادة تخول للكاتب تمرير خطابه السياسي عبر شبكات من الرموز والدلالات تؤدي إلى التحايل على الرقيب الإداري وإلى تجنب مصادرة العرض.

لقد استثمرت هذه الوضعية إلى حدود سنة 1955 بعد أن تجذرت معالمها مع وثيقة المطالبة بالاستقلال (11 يناير 1944) وهذا لا يعني أن التجربة الأولى لتأسيس المسرح المغربي قد انحصرت في حدود النص العربي الفصيح بل اعتمدت أيضا على الكتابة باللغة العامية (مثلا مسرحية عبد الواحد الشاوي) –فين دواك يا مريض– ومسرحية رشيد بوشعيب – دموع اليتيمة– إلى آخره"[7].

وأنه رغم الفارق الذي كان بين الفنون المحلية والمسرح بمعناه الحديث فإن هذا لم ينفي بأن المغاربة كانت لهم رؤية قريبة إلى حد ما، إلا أن تبلوره قد زاد في ساحة الإبداع بالمغرب بعد الاستعمار فجاشت النفوس

[5]– حسن المنيعي، أوضاع المسرح المغربي (مرجع سابق).

[6]– دعوة الحق العدد 181 مرجع سابق.

[7]– حسن المنيعي، أوضاع المسرح المغربي، مرجع سابق.

وغضبت...فصاحب ذلك ردة فعل جسدت على ركح المسرح مما أدى بالدفع بعجلة المسرح المغربي إلى الأمام وخدمتها بإخلاص يجمع بين الغيرة الإسلامية و الوطنية، مما دفع الدراميين المغاربة إلى أن يبدعوا إنتاجات نابعة من تاريخ بلدهم كمسرحية " المنصور الذهبي" التي ألفها ابن الشيخ ومسرحية " التعليم ونتائجه" التي أحرزت على الجائزة الأولى للتأليف سنة 1929 ، والتي تبرز أهمية التعليم في تحقيق أهداف الأمة وتحريرها وغيرها كثير من المسرحيات.

لقد كان "المسرح المغربي مسرح هواة يرى إلى بث الوعي الفني والوطني في نفوس المواطن، ولقد لقي رجاله الكثير من العنف بالمحاكمات و المغامرات فكان ينتكس ويزدهر طبقا للضغوط رغم ذلك استطاع تأدية رسالة إلى الجمهور رغم المشاركة الفعلية بالحضور بالمئات لعروضه، وفي إيقاضه لوعيه القومي والوطني و بإيقاد جدوة التحرر والكفاح التي استجاب لها حينما دعا إلى الوطنية، وكان بإمكان هذه الحركة أن تؤثر تأثيرا إيجابيا في اتجاه كتابة المسرحية لوقف الخنق الذي فرضته السلطات الاستعمارية إذ ذاك، مما دفعها إلى انتظار مسرحية أخرى"[8].

ولكن المهم من هذا كله هو أن الفن المسرحي بكل نصوصه ورجاله وممثليه ومخرجيه قد ساهموا بشكل أو بآخر عن طريق أعمالهم المسرحية أن يشحدوا همة المغاربة في سبيل مقاومة المستعمر، مما يدل دلالة واضحة على أن المسرح المغربي قد لعب دورا مهما في طرد المستعمر إذ كان له أثر عظيم في ذلك.

الرواية وقضية الحرية:

وانطلاقا مما سبق فإن الأجناس السالفة الذكر قد عملت على الوصول إلى هدف واحد وهو كما قلنا تنقية البلاد من براثين المستعمر، ولم تقف هذه العملية على فن القصة والمسرحية بل وللرواية أيضا دور في ذلك ولعلها أكثر الأنواع الأدبية الحديثة التي" تقترح على النقاد إعادة النظر في تصوراتهم النقدية عنها، فهي دائمة التجدد، لا تكاد تتبنى شكلا إلا وتطور سواه ولا تنفك تحدث بنيتها السردية بين عقد وعقد، بل أنها طورت وظائفها، فالوظيفة التي استندت نفسها لها في القرن 19 اختلفت عند تلك الوظيفة التي قامت بها في القرن العشرين والحال هذه فالرواية نوع اختزالي في سيرورة ترتسم فيها مظاهر التغير جيلا بعد جيل، وبين ثقافة وأخرى، وقد انتزعت نفسها من بين التعريفات النقدية وأصبحت ظاهرة ثقافية أدبية متنوعة الأبعاد، وصار من المستحيل تجريدها من وظيفتها التمثيلية الثقافية، فهي تختزل النظرات النقدية الضيقة التي تنحبس في تفسير أحادي الرؤية وتتمرد على أي منظور يراها ظاهرة أدبية فقط، وعلى هذا فهي تترقب دائما وتتقبل في الوقت نفسه، تغيرات يجب أن تأخذ في الحسبان جملة من الأسباب والمؤثرات، وهذا الأمر جعلها موضوعا لكل من تاريخ الأدب، ونظرية الأدب، والنقد الأدبي، والأدب المقارن، ناهيك عن الدراسات الثقافية واللغوية والأسلوبية وغيرها، فالرواية لاستثارة منازع مختلف في التفسير والتحليل، ومن ذلك التفسيرات الثقافية التي تتسع لفهم شتى المعطيات في أفق مشترك"[9].

الرواية باعتبارها فنا أدبيا، قد ظهر على أنقاض الملحمة في أوروبا فقد وصلنا مع دخول الاستعمار فكتب العرب ومن بعدهم المغاربة في هذا الفن و كانت أول رواية حسب تصنيف موقع اتحاد كتاب المغرب "رواية الزاوية للتهامي الوزاني 1942"[10].

---

[8]– نشأة المسرح المغربي، دعوة الحق، العدد:181، مرجع سابق.

[9]– عبد الله إبراهيم، الرواية العربية والخطاب الاستعماري، الخميس 5 جمادى الأولى 1430هـ،30 أبريل 2009، جريدة الرياض العدد 14920.

[10]– بيبليوغرافيا الرواية المغربية المكتوبة بالعربية 1942–1999 عن موقع اتحاد كتاب المغرب من إعداد وتقديم عبد الرحيم العلام.

*– عبد الهادي بوطالب 23 ديسمبر 1923 فاس – 16 ديسمبر 2009 الرباط، تخرج من جامعة القرويين عمل أستاذا بالمدرسة المولوية كما اشتغل بمجلس الاستيناف الشرعي وكان وزيرا للشغل، ومن أ'ماله وزير غرناطة، لسان الدين محمد بن الخطيب السليماني، الصحوة الإسلامية . (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

وتواترت عليها أعمال أخرى وإن كانت بوتيرة ضعيفة جدا كوزير غرناطة لعبد الهادي بوطالب*، ورواد المجهول لعبد السلام البقالي، وكذا روايته الأخرى السلسلة الذهبية كما لا ننسى عبد المجيد بن جلون في الطفولة.

هذه الأعمال كانت تجسد تلك المرحلة بجدارة إذ أفضت لنا عن واقع تلك المرحلة التاريخية فمثلا " تنقل لنا رواية عبد الكريم غلاب* الروائي المغربي لحظات تاريخية عرفها المغرب منذ عهد الحجر على استقلاله وما بعد استقلاله فإذا كانت رواية دفنا الماضي لعبد الكريم غلاب تصور صراع المغاربة ضد المحتلين الأجانب فإن رواية المعلم علي تركز على شريحة من العمال مجسدة نضاله السياسي المرير من أجل تأسيس نقابة وطنية مغربية حرة، وهذا ما تطرحه أيضا رواية الريح الشتوية لمبارك ربيع[11]*، أما رواية عبد الله العروي[12]* أوراق بالخصوص ورواية محمد برادة* بالضبط لعبة النسيان فهي تصور معاناة المغرب من جراء سياسة الاستغلال والتغريب التي تبنتها الحكومة الاستعمارية وأثروا على المثقفين الذين عاشوا قسوة الاحتلال وإحباط الاستغلال وأحسوا بالإخفاق والفشل والتأخر التاريخي وزيف الشعارات السياسية كما هو مشخص في رواية الغربة واليتيم لعبد الله العروي... كما ركزت روايات أخرى على الصراع السياسي والاجتماعي في مغرب الستينات والسبعينات كرواية محمد زفزاف* ومحمد عز الدين التازي*... بينما اختارت روايات أخرى معالجة موضوع الاستبداد والسلطة ومصادرة حقوق الإنسان وبطالة المثقفين والسلطة في رواية محمد عز الدين التازي ومحمد برادة وعمرو قاضي..."[13].

فالرواية كما لاحظنا أنها كجنس أدبي هي الأخرى لقد شاركت المغاربة في عصر الاستعمار همومهم وعبرت عن قضاياهم وناقشت قضيتهم وأثارت فكرهم وخاطبت عقولهم بشتى الأشكال عن خطورة الاستعمار ومدى الاستغلال الذي يتعرض له أبناء المغرب من طرف المحتل، فهذا الجنس الأدبي قد اهتم رواده بتسخير أعمالهم في سبيل مقاومة

---

*– عبد الكريم غلاب: كاتب و مؤرخ و روائي وأديب مغربي، ولد بفاس سنة 1919، تلقى تعليمه الأول في المدارس الحرة ثم في كلية القرويين ابتداء من سنة 1932، سافر إلى القاهرة سنة 1937. التحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة "فؤاد الأول" سنة 1940، إلى أن تخرج منها سنة 1944، من مؤلفاته المعلم علي، سبعة أبواب، دفنا الماضي. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

[11]*– مبارك ربيع: كاتب وأديب مغربي ولد بسيدي معاشو " عمالة سطات" 1935، اشتغل بالتعليم الابتدائي ابتداء من سنة 1952، وحصل على الإجازة في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع سنة 1967، ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا في علم النفس 1975، كما أحرز على دكتوراه الدولة سنة 1988. يشتغل حاليا قيدوما لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك سيدي عثمان بالبيضاء، انضم إلى اتحاد كتاب المغرب سنة 1961، من مؤلفاته: الطيبون، الريح الشتوية، درب السلطان. (نقلا عن اتحاد كتاب المغرب).

2*– عبد الله العروي: (1933 أزمور)، مؤرخ وروائي مغربي تلقى تعليمه في العاصمة المغربية الرباط و تعليمه العالي في فرنسا بجامعة السوربون وفي معهد الدراسات السياسية بالعاصمة الفرنسية باريس، حصل سنة 1956 على شهادة العلوم السياسية وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ سنة 1958، ثم على شهادة التبريز في الإسلاميات سنة 1976، قدم أطروحة بعنوان الأصول الاجتماعية والثقافة المغربية 1830–1912، وذلك لنيل دكتوراه الدولة من السوربون، ومن مؤلفاته أوراق ومجمل تاريخ المغرب، مفهوم التاريخ. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

*– محمد برادة: ولد 14 مايو 1939 الرباط، روائي وناقد مغربي يكتب القصة والرواية كما يكتب المقالة الأدبية والبحث النقدي وله في هذه المجالات جميعها العديد من الدراسات وبعض الكتب ذات الأثر اللافت في المشهد الأدبي والثقافي والنقد العربي، ككتابه الهام حول محمد مندور وكتابه النقدي حول الرواية العربية. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

[13]– جميل حمداوي: مقالة بعنوان الرواية العربية ذات البعد التاريخي، المنبر الحر للثقافة والفكر والأدب 17 نوفمبر 2006.

*– محمد زفزاف: ولد سنة 1945 وتوفي في 13 يوليوز سنة 2001، قاص وروائي مغربي، يعتبر زفزاف من أهم الأدباء المغاربة المعاصرين وأحد أكثر الكتاب المغاربة مقروئية في العالم العربي، من أعماله بيضة الديك، المرأة، والوردة. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

*– محمد عز الدين التازي: روائي مغربي ولد بفاس سنة 1948، تلقى تعليمه بالمدارس الحرة ثم التحق بالقرويين، حيث تابع دراسته الثانوية، تابع تعليمه بكلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس، حيث حصل على دبلوم الدراسات العليا سنة 1986، يشتغل أستاذا بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان بدأ النشر سنة 1966، ومن مؤلفاته، أبراج المدينة ورجل البحر. (نقلا عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة).

المستعمر، ومن هنا يمكن أن نجزم أن الرواية هي الأخرى كجنس أدبي قد قاومت بكل ما أوتيت من حروف وجمل وفقرات وصحف طغيان الذئب المستعمر وحاولت ما أمكن أن تبصم بصمتها في وثيقة أجناس المقاومة المستعمرة آنذاك.

السلطة الرابعة ورقابة الاستعمار:

ولكي لا نطيل الحديث، فالأجناس الأدبية قد تجلى من خلال ما سبق دورها الدفاعي ضد الاستعمار بكل ما أوتيت من قوة والذي لا يختلف على مكانتها عاقلان، ولكن لا يجوز أن نمر في هذا المحور دون أن نشير إلى عنصر أساسي آخر كان تأثيره بمثل تأثير الأدب في توعية الرأي العام بخطورة الاستعمار و ضرورة مجابهته، ألا وهي الإنتاجات الصحفية، فقد كانت هذه الأخيرة" على الدوام عاملا قويا وهاما في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية وكان لها أثرها الواضح في قضايا المغرب، وخرج من العزلة لخدمة قضايا الحرية والوحدة القومية والترابية ومقاومة الاستعمار، والنفوذ الأجنبي والانحراف ثم وضع القواعد الأساسية للفكر العربي المعاصر الذي يطل علينا خلف آكام التخلف المحيطة بنا والتي تستنزفها اليوم معارك الشغل والتحرير والتصنيع"[14].

وخير مثال لنمثل به دور الصحافة، نجد جريدة الرأي العام التي انطلقت بعد" شهر واحد من صدور "العالم" إذ عقد حزب الشورى والاستقلال اجتماعا بفاس أكتوبر 1946 تقرر فيه الجريدة الناطقة باسم الحزب، وفعلا ظهر العدد الأول من جريدة الرأي العام في منتصف أبريل 1947 بعد ستة أشهر من المساعي لدى الإدارة الفرنسية. كان عنوان الجريدة مكتوبا وسط رسم يمثل المجلس البرلماني يوحي بالخطة السياسية للرأي العام التي كرست حياتها للدفاع عن ضرورة دمقرطة الحياة العامة وتزويد البلاد بدستور يكون لبنة أولى نحو الاستقلال..."[15] .

فجريدة الرأي العام لم تكن وحدها قاومت الاستعمار بل " ساهمت إلى جانب الصحف الوطنية الأخرى في تبيين الانتهاك الخاصة بحقوق الشعب المغربي تحت وطأة الاحتلال، كما عملت على تعبئة الجماهير لمقاطعة البضائع والمنتجات الفرنسية ولذلك ضيقت الإدارة عليها الخناق بالتوقيف والرقابة، ولعل أهم هذه المضايقات المحاكمة التي تعرضت لها في ربيع 1952، بعد أن نشرت (جريدة الرأي العام) مقالا لاذعا ضد السلطات الفرنسية تحت عنوان (سياسة الأبهة والآلهة الجدد)، ولم تلبث الجريدة أن عرفت في نهاية السنة مصير الصحف الوطنية الأخرى... أي التوقيف"[16].

إن الصحف المغربية وإن لم تكن في مجال الأدب إلا أنها عملت نفس عمله، واشتركوا في وظيفة المقاومة بل وإن الجرائد قد كرست صحف خاصة وأعمدة لنشر الأعمال الأدبية كما فعلت جريدة العالم لوعيهم وفطنتهم بقوة العمل الإبداعي الأدبي في التأثير في الرأي العام وهذا دليل مباشر على القيمة المضافة التي قدمها الأدب في الدفاع عن حوزة الوطن ومقاومة المستعمر.

خلاصة:

وآية القول يمكننا القول إن القيمة النضالية للأدب المغربي تتجلى حقيقة في الدور المحوري الذي اضطلع به المثقفون والأدباء بمختلف مشاربهم الإبداعية؛ من روائيين، ومسرحيين، وشعراء، حيث استحال القلم في أيديهم أداةً للمقاومة الفكرية وسلاحاً رمزياً لمجابهة الخطاب الكولونيالي. فقد نجح المتن الأدبي المغربي في تعبئة الوجدان الوطني، وتوهين الروح المعنوية لقوى الاستعمار من خلال تعرية سياساته وتقويض مرتكزاته النفسية والسياسية.

---

[14]– زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربية نشأتها وتطورها، دعوة الحق، العدد 124، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية.

[15]– المقاومة المغربية ضد الاستعمار الجذور والتجليات، أعمال الندوة العلمية: 13-14-15، نونبر 1971، جامعة ابن زهر منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير، ص: 274.

[16]– نفس المرجع السابق والصفحة.

إن استقراء الذاكرة التاريخية والمدونات الأدبية والشهادات الشفهية يؤكد حقيقةً تاريخيةً لا تقبل التأويل؛ وهي أن الأدب المغربي لم يكن ترفاً فكرياً، بل كان فعلاً ثورياً بامتياز، اتخذ من قيم الحرية والسيادة الوطنية شعاراً له. وقد تجسد هذا الالتزام في نتاج أدبي نضالي جعل من استقلال الوطن غايةً أسمى، ومن المقاومة بالكلمة واجباً مقدساً، مؤرخاً بذلك لمرحلة مفصلية امتزج فيها مداد العلماء والأدباء بدماء المقاومين في سبيل نيل الاستقلال والتحرر.

لائحة المصادر والمراجع:

- –هشام حراك، القصة الواقعية بالمغرب الرواد والمؤسسون: الجريدة الالكترونية المغربية هسبريس، يونيو 2012.
- حسن المنيعي: أوضاع المسرح المغربي المملكة المغربية وزارة الثقافة.
- نشأة المسرح المغربي: دعوة الحق العدد 181 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (نقلا عن نشأة المسرح المغربي للدكتور عثمان بن خضراء مجلة الفنون العدد 7–8، وأبحاث الدكتور المنيعي، وعن فهرس للمسرح المغربي الدكتور زين العابدين الكيناني، العدد 7–8، وعن الفن القصصي والمسرحي في المغرب العربي محمد الصادق العفيق، مجلة الفنون).
- الدكتور عبد الله إبراهيم، الرواية العربية والخطاب الاستعماري، الخميس 5 جمادى الأولى 1430هـ،30 أبريل 2009، جريدة الرياض العدد 149.
- بيبليوغرافيا الرواية المغربية المكتوبة بالعربية 1942–1999 عن موقع اتحاد كتاب المغرب من إعداد وتقديم عبد الرحيم العلام.
- جميل حمداوي: مقالة بعنوان الرواية العربية ذات البعد التاريخي، المنبر الحر للثقافة والفكر والأدب 17 نوفمبر 2006.
- زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربية نشأتها وتطورها، دعوة الحق العدد 124 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية.
- المقاومة المغربية ضد الاستعمار الجذور والتجليات، أعمال الندوة العلمية 13–14–15 نونبر 1971، جامعة ابن زهر منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير.

Bibliography:

- Hisham Harrak, al–qissa al–waqi'iya bil–Maghrib ar–ruwad wal–mu'assisun: al–jarida al–iliktiruniya al–maghribiya Hespress, June 2012.
- Hassan al–Mani'i: awda' al–masrah al–maghribi, al–mamlaka al–maghribiya wizārat ath–thaqafa. –Nash'at al–masrah al–maghribi: Da'wat al–Haqq al–'adad 181, wizārat al–awqaf wash–shu'un al–islamiya (naqlan 'an nash'at al–masrah al–maghribi lid–duktur 'Uthman bin Khadra', majallat al–funun al–'adad 7–8, wa abḥath ad–duktur al–Mani'i, wa 'an fihris lil–masrah al–maghribi ad–duktur Zayn al–'Abidin al–Kinani, al–'adad 7–8, wa 'an al–fann al–qisasi wal–masrahi fil–Maghrib al–'Arabi Muhammad as–Sadiq al–'Afiq, majallat al–funun).
- Abd Allah Ibrahim, ar–riwaya al–'arabiyya wal–khitab al–isti'mari, al–khamis 5 Jumada al–Ula 1430h, 30 April 2009, jaridat ar–Riyadh al–'adad 149.
- Bibliyughrafiya ar–riwaya al–maghribiya al–maktuba bil–'arabiyya 1942–1999 'an mawqi' Ittihad Kuttab al–Maghrib, min i'dad wa taqdim 'Abd ar–Rahim al–'Allam.
- Jamil Hamdawi: maqal bi–'unwan ar–riwaya al–'arabiyya dhat al–bu'd at–tarikhi, al–minbar al–hurr lith–thaqafa wal–fikr wal–adab, 17 November 2006.
- Zayn al–'Abidin al–Kattani, as–sihafa al–maghribiya nash'atuha wa tatawwuruha, Da'wat al–Haqq al–'adad 124, wizārat al–awqaf wash–shu'un al–islamiya, al–mamlaka al–maghribiya.
- al–muqawama al–maghribiya didd al–isti'mar al–judhur wat–tajalliyat, a'mal an–nadwa al–'ilmiyya 13–14–15 November 1971, jami'at Ibn Zohr, manshurat kulliyat al–adab wal–'ulum al–insaniya, Agadir.